الأخاء

مجلة علمية تاريخية أدبية روائية مصورة

﴿ مصر نوفمبر (تشرين ثاني) سنة ١٩٢٦ — جماد أول سنة ١٣٤٥ ﴾

(الشيخ ناصيف اليازجي)

أمضي وتبقى صوري فتعجبوا　　تمضي الحقائق والرسوم تقيم
والموت تجلبه الحياة فلو حوى　　روحاً لمات الهيكل المرسوم

هو ناصيف بن عبد الله بن ناصيف بن جنبلاط بن سعد اليازجي اللبناني المولد الحمصي الأصل . هاجر جده سعد من حمص مع جماعة من أهله نحو سنة ١٦٩٠ لظلم وغبن وقع عليهم . فسكن بعضهم في سواحل لبنان في الجهة المعروفة « بالغرب » وآخرون في وادي التيم من أعمال دمشق وتوطن بعضهم في جهات أخرى ومعظمهم من طائفة الروم الارثوذكس أما فرع الشيخ ناصيف فانه ينتمي الى طائفة الروم الكاثوليك .

ولد رحمه الله في بلدة كفر شيما من قرى سواحل لبنان في ٢٥ مارس (آذار) عام ١٨٠٠ م وتعلم مبادىء القراءة على القس متى من قرية بيت شباب . وكان والده عبد الله طبيباً شهيراً على طريقة ابن سينا، وفي الوقت نفسه كان شاعراً أديباً ولكنه قلما كان يقرض الشعر لقلة الأسباب الداعية اليه في تلك الأيام وقد نشأ ولده ناصيف على الميل الى الشعر . وأقبل على الدرس والمطالعة بنفسه فطالع ما وصلت اليه يده من كتب اللغة ودواوين الشعراء . ونظم الشعر وهو في العاشرة من عمره وكان يقصد الادبرة ويطالع في مكاتبها وينسخ منها كثيراً بخطه ويستعير الكتب وينسخها بخطه وقد برع في اللغة ونبغ في آدابها وتبرز في نظم الشعر حتى ما كان يجاري في زمانه

وذاع صيت علمه في أوائل أمره بين الخاص والعام فانتدبه السيد أغناطيوس الخامس بطريرك الروم الكاثوليك عام ١٨١٦ ليكون كاتباً عنده فلبث في هذه الوظيفة سنتين ثم اتصل بالامير بشير الشهابي فاتخذه منوعينه كاتباً عنده فلبث في هذه الوظيفة مدة اثني عشرة سنة ولما خرج الامير من الديار الشامية عام ١٨٤٠ انتقل صاحب الترجمة الى بيروت وأقام فيها منقطعاً للمطالعة والتأليف والتدريس في المدرسة الوطنية والجامعة الاميركية . وقد طارت شهرته في جميع البلاد العربية وكاتبه أكابر الشعراء وفطاحل العلماء من مصر والعراق وسورية وغيرها وقد طبع ما دار بينهم وبينه في كتاب خاص عنوانه « فاكهة الندماء في مراسلة الشعراء »

وكان صاحب الترجمة معتدل القامة ممتلىء الأعضاء أسمر اللون حنطيه اسود الشعر أجش الصوت . وكان ذا هيبة ووقار وشهامة ومروءة كثير التواضع قليل الضحك نزيه اللسان لم تسمع له كلمة بذيئة لا في حديثه ولا في كتاباته ولم يهج أحداً ولا هجاه

أحد في زمانه وروى له بيتين قالها ارتجالا في رجل بخيل يدعى الامير علي شباب وهما

قد قال قوم ان خبزك حامض والبعض أثبت بالحلاوة حكمه
كذب الجميع لزعمهم في طعمه من ذاقه يوماً ليعرف طعمه

وكان ودوداً مخلصاً رقيق القلب ذا عواطف شريفة وتقوى ومن صفاته انه ما كان يعطي مالا ولا يأخذ مالا بالربا ولا يكتب صكا فيه ربا وكان ذا فريحة وقادة وذكاء نادراً فكان يروي القصة بتواريخها وأسماء أصحابها وأسماء بلدانهم ومن غريب ذاكرته انه كان اذا نظم الشعر لا يكتبه بيتاً بيتاً ولكنه كان ينظم القصيدة ثم يكتبها حتى انه في خلال مرضه الاخير أملى ثمانية وعشرين بيتاً دفعة واحدة . وألف المقامة اليمامية وهو على ظهر الفرس حيث كان مسافراً الى بحمدون . وكان يحفظ القرآن كله ويحفظ من الشعر شيئاً كثيراً ولا سيما شعر المتنبي لشدة اعجابه به حتى أنه كان يقول : « كان المتنبي يمشي في الجو وسائر الشعراء يمشون على الارض »

وكان محافظاً على تقاليد أهله وبلاده في اللباس والطعام وسائر العادات فكان يلبس العمامة والجبة والقفطان ويضع الدواة في منطقته . وكان يكتب على ركبته وهو متربع فوق منبذة مطروحة على الخضيض وأمامه منضدة صغيرة لوضع القلم والحبر والورق . وكان رحمه الله مولعاً بتدخين التبغ بالنارجيلة ويكثر من تناول القهوة ويروى من جملة نوادره انه زار المعلم ابراهيم سركيس في منزله فلما قدمت له القهوة أنشده ابراهيم هذا البيت :

قهوة البن حرام قد نهى الناهون عنها

فاجابه الشيخ ناصيف من فوره قائلا :

كيف تدعوها حراماً وأنا أشرب منها

وله رحمه الله مؤلفات كثيرة مشهورة ولا سيما في اللغة العربية وهي تدرس في أكثر مدارس سوريا وبعض المدارس المصرية وهاك أسماء ما وصلت الينا معرفته من تلك التآليف :

(١) فصل الخطاب في أصول لغة الاعراب | (٢) الجوهر الفرد في موجز الصرف

(٣) طوق الحمامة في مبادىء النحو
(٤) أرجوزة لحة الطرف في علم الصرف
(٥) ارجوزة الباب في أصول الاعراب
(٦) الجمانة في شرح الخزانة
(٧) نار القرى في شرح جوف الفرا
(٨) عمود الصبح
(٩) عقد الجمان في المعاني والبيان
(١٠) الطراز المعلم
(١١) نقطة الدائرة في العروض والقافية
(١٢) اللامعة في شرح الجامعة
(١٣) قطب الصناعة
(١٤) التذكرة في أصول المنطق
(١٥) القطوف الدانية
(١٦) مجموع الادب في فنون العرب
(١٧) الحجر الكريم في الطب القديم
(١٨) جمع الشتات في الاسماء والصفات
(١٩) وساعد المرسلين الاميركان في ترجمة الكتاب المقدس وتظهم المزامير وبعض الاغاني الدينية
(٢٠) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب أتمه ولده الشيخ ابراهيم
(٢١) مقامات مجمع البحرين
(٢٢) ثلاثة دواوين شعرية

وقد تفنن في صناعة التاريخ الشعري تفننا غريباً أدهش الافكار وحير الابصار ومن أبدع ما نظمه في هذا الباب بيتان قالهما سنة ١٢٤٨هـ . في فتح مدينة عكا اقترحهما عليه الامير بشير الشهابي وهما يتضمنان ٢٨ تاريخاً بحساب الجمل وذلك يحصل من كل شطر منهما ومن مجمل كل بيت منهما ومن معجمه ومن فاصل كل شطر مع معجم كل شطر فيها وبالعكس صدراً لصدر وعجزاً لعجز وبالخلاف سوى التاريخ الناطق لفظاً وهما:

في فتح عكا برد نار معاطب ... دار الخليل وللديار بهـا البكا
رأس الثمان وأربعين بطيه ... مئتان مع الف فبارك وبكا

ومن مبتكراته أيضاً في فن النظم بيتا المديح اللذان اذا عكست قراءتهما انعكسا هجاء وهما:

حلوا فما سامت لهم شيمٌ ... سمحوا فما شحّت لهم منن
سلموا فلا زلّت لهم قدم ... رشدوا فلا ضلت لهم سنن

فاذا عكست قراءتهما كانا كما يأتي

منن لهم شحت فما سمحوا ... شيم لهم سامت فما حلوا

سئن لهم ضلت فلا رشدوا قدم لهم زلت فلا سلموا

ومن مخترعاته « عاطل الماطل » وهو أن تكون حروف الكلمة خالية من النقط كتابة وهجاء وهي ثمانية في اللغة العربية وهي: ح — د — ر — ص — ط ل — ه — و . وقد نظم من هذا النوع أربعة أبيات لا يعرف لها مثيل في لغة العرب قال في مطلعها

حول درّ[1] حل[2] ورد[3] هل له ثغر ورد[4]

وقد حسد الملعون المسيحيين عليه فقال في ذلك الشيخ عبدالهادي نجا الابياري

هو قاضي البلاغة الفاضل النسـ ـب الذي فاق في المعارف أوحد
ملك القول من يقسه بقس فهو لا شك في القياس مقسّه
ما سمعنا بمثله عيسويا يتحدّى بمثل معجز أحمد
ألمي لكنه عيسوي كان أولى بفضل دين محمد

وقد رد عليه الشاعر مارون النقاش بأبيات طويلة قال في مطلعها

أيها السيد الخطيب لماذا قمت تبدي ما لم يكن فيك يبدو

ومنها : —

لا ولا الفخر بالمذاهب الا يوم تصفو فيه الوجوه وتكمد
فعلام انزلقت في غير وقت تتمدى لفتح باب مسدد
نحن في عصر والمودة تنمو والتداني بين الفريقين يوجد

وصاحب الترجمة أبيات حكمية جرت مجرى الامثال وهي متداولة كثيراً على الالسن منها

من عاش بالتقصير من ذوي الغنى فانه أفقر من فوق الثرى
كل يعد نفسه نعم الفتى فمن هو المذموم منا يا ترى
لا يحمد القوم الفتى إلا متى مات فيعطى حقه تحت البلى
من قال لا أغلط في أمر جرى فانها أول غلطة ترى

---

(١) عبارة عن الانسان (٢) نزل (٣) عبارة عن الخد (٤) اي حل للرجل الكريم ورود اليه .

يعرف كل حاله فيما مضى الا الذي كان دنيئاً فارتقى
وكل من لا خير منه يرتجى ان عاش أو مات على حدّ سوا

وفي عام ١٨٩٦ أصيب بمرض عضال فتلج قلبًا نصفياً عطل نصفه الايسر ثم أصابته سكتة دماغية فتوفي فجأة في اليوم الثامن من شهر فبراير (شباط) عام ١٨٧٩ في منزله الكائن في زقاق البلاط في بيروت واحتفل بدفنه احتفال مهيب اشترك فيه العلماء والكبراء وعلية القوم من مختلف الملل ثم دفن في الزيتونة بمدفن الروم الكاثوليك ونقشوا على ضريحه أبيات جاء في مطلعها

هذا مقام البازجي فقف به وقل السلام عليك يا علم الهدى

وختمت بتاريخ هو

وجميل حظك في الاعالي رحمة أرخ وذكر في الصحائف خلدا

يا جهل عد

ماذا أفاد العلمُ وهو سعادةٌ موهومةٌ عند الذين تنبّهوا
فالأرض واجفةٌ بمخترعاته فِطَرٌ تروّعنا وأخرى تصرعُ!
والجوُّ ممتلئٌ بطيّاراته وبأرضنا تُلقى الخراب وتُزرعُ
والبحرُ مضطخبٌ بنواصاته ودمُ الجنود كموجه يتدفّقُ!
والشرُّ فاشٍ والشقاء مخيّمٌ والكذبُ يُضحك والحقيقةُ تدمعُ
والحرُّ مضطربُ الخواطر عانٌ يوم الصراحة والأديبُ مضيّعُ
والظلمُ يحكمُ والمطامعُ جمّةٌ والعدل يشكو والسياسة تسمعُ
والسلم يُضرب ثم يُطرح خارجاً والحرب «تقسم» والمنيّة تجمعُ!
مدنيةٌ جرّت ضروبَ كوارثٍ وجنت لو وقتها الجهاتُ الاربعُ
يا علمُ سِر عنا فلستَ بنافعٍ يا جهل عُد إنّ الجهالة أنفعُ